الروح العسكرية فى الإسلام

للأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين

تقلب النظر فى تاريخ الأمم التى بلغت الذروة فى العزة والسيادة ، فنجدها إنما بلغت تلك الذروة بما ملكت من قوة الروح العسكرية ، فبقوة الروح العسكرية تسلم البلاد من خطر يمتد إليها من الخارج ، وبهذه القوة يستتب الأمن فى داخل البلاد على ما يرام ، ذلك أن قوة الروح العسكرية تجعل الأمة قوية الشوكة نافذة الارادة . مرهوبة الجانب .

وقد كان فى الأمم العربيـة وهى فى جاهليتها روح عسـكرية شديدة البأس يتمثل هذا فى أشعارهم وكثرة أيام حروبهم ، ولكنها روح قد تخرج عن حدود العدل ، ولا تبالى أن تبدأ بالظلم ، فجاء الإسلام وعدلها ، وهذب حواشيها وحاطها بنظم حكيمة ، فانتقلت الى طور أرقى ، ولبست رداء أنقى ، وأصبحت هـذه الروح مصدر خيرات لا يتلقاها النـاس إلا من ناحيتها .

وليس من شك فى أن الدفاع عن الحقوق والمصالح الخاصة أو العامة يعد فى أمجد الأعمال التى يتنافس فيها حماة الحرية وأنصار الإنسانية .

تقوى الروح العسكرية فى القوم متى طبعوا على خلق الشجاعة واستنارت أذهانهم بمعرفة فنون الحرب ، وملكوا من وسائل الدفاع ما يقتضيه حال العصر ، فلا عجب أن ترى القرآن الكريم قد توجه إلى هـذه الأصول الثلاثة بعناية كبيرة ، فأرسل الحكم التى تربى فى النفوس خلق البطولة وحفز الدواعى لإعداد وسائل الحرب ، ونبه لاتبـاع النظم التى تخفف وطأة الحرب ، وتقرب من النصر .

فالظفر فى الحرب بعيد من الجبناء ، وبعيد ممن لا يعدون للحرب عدتها ، وبعيد ممن يهملون النظم التى يمليها العلم ، أو يستمدها القواد الأذكياء من الوقائع نفسها .

أما عناية القرآن الكريم بخصلة البطولة والإقدام ، فقد أقبل على النفوس وأخذ ينقيها من رذيلة الجبن والإحجام ، ويذكرها بسوء عاقبة الجبناء ، كقوله تعالى : " كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلًّا ولا ذمة " فقد أشارت هذه الآية إلى أن عاقبـة الجبناء الابتلاء بذى قوة لا يعرف للعهد حرمة ، ولا يقيم للعـدل وزنا ، ومن الذى يرتاب فى أن الموت فى مواطن البطولة أشرف من حياة يغمرها الذل والهوان ، قال المتنبى :

غير أن الفتى يلاقى المنـايا كالحات ولا يلاقى الهوانا

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جبانا

ومن الآيات المنبهة على أن الجبناء فقدوا جانبا من رجولتهم قوله تعالى فى توبيخ قوم تأخروا عن المحاربين فى سبيل الإصلاح ، وقعدوا بين من لم يخلقن للطعن والضرب : "رضوا بأن يكونوا مع الخوالف" ولا يتوارى الرجل من أعين القوم أو يسل يده من أيديهم فى حرب لهم فيها أمن أو سيادة إلا أن يكون حظه من الرجولة ضئيلا أو مفقودا .

ومما اتخذه القرآن وسيلة لتربية الشجاعة فى النفوس عقيدة القضاء والقدر فقال تعالى فى الرد على قوم يظنون أن من لا يخرجون إلى القتال تمتد آجالهم : "لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم" وقال تعالى "الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين" .

فالإنسان مطالب بالحذر من مواقع الخطر والتهلكة ، ولكن الإقدام فى الدفاع عن العزة والكرامة لا يعد من قبيل الالقاء بالنفس فى تهلكة ، وإنما هو قيام بواجب ، فإن قضاه وعاد سالما فقد استحق الحمد ، وعرف أن أجله لم يجئ بعد ، وإن أصيب فقتل فإنما هو أجله المقدور الذى لا يتأخر ساعة ولا يتقدم قد أدركه فى أشرف حالة هى المسابقة إلى دفع أيد عادية عن نفوس بريئة أو أعراض مصونة أو أموال محترمة .

وأما عناية القرآن بإعداد وسائل الدفاع فحسبنا شاهدا عليها قوله تعالى : "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" وقد فسر النبى صلى الله عليه وسلم القوة بالرمى نظرا إلى أن الرمى أهم وسائل الدفاع ، وأقواها أثرا فى الانتصار ، وما زلنا نرى معظم أسباب الفوز فى الحروب عائدا إلى الرمى ، فالمدافع والطائرات والغواصات إنما تفعل ما تفعل بقوة الرمى .

ونبه القرآن الكريم فى آية أخرى على أن قاصد الحرب شأنه أن يأخذ الأهبة للحرب قبل النهوض إليها ، فقال تعالى فى وصف قوم من المنافقين أضمروا عدم الخروج إلى الحرب من أول الأمر ثم استأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم فى التخلف : "ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة" .

أما عناية القرآن باتباع ما تقتضيه النظم الصالحة ، فمن الآيات المشيرة إليه قوله تعالى : "إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص" ومن مقتضى هذه الآية أن الشجاعة واستيفاء وسائل الدفاع المادية لا يغنيان عن الأخذ بالنظم التى هى أثر التجارب والبصائر النافذة .

وفى كتب السنة والغزوات النبوية أحاديث كثيرة ترشد إلى أن من أهم وسائل الفوز اتباع النظم التى تستدعيها مصلحة القتال .

يبث القرآن الكريم فى النفوس روحا عسكرية قوية صادقة ، فلا جرم أن يكون المؤمن بحق قوى الجأش ، محافظا على نظم الدفاع ، آخذا بوسائله ما استطاع ، وكذلك كان الناس فى عهد الأمراء المظفرين .

ومن أسباب قوة الروح العسكرية فيما سلف أن رؤساء الجند يقدرون عمل الجنـــدى ، يعرفون أثره الخطير فى سلامة الوطن ورفعـــة شأن الأمة ، فلا يكون منهم إلا أن يرعوا الجنود برفق ويذيقوهم حلاوة التمتـــع بالكرامة فى دائرة الحزم ويرفعون درجاتهـــم على قدر كفاياتهم لجلائل الأعمال وملاقاة الأخطار .

كانت الروح العسكرية مظهرا من مظاهر التقوى ، ومعدودة فى الخصال التى يرتفع بها أفاضل القوم درجات ، وكان العلماء يحرصون على أن يكون لهم منها أوفر نصيب ، وإذا رجعنا إلى تاريخ العلماء الأجلاء ، وجدنا كثيرا منهم كانوا يسابقون فى ميادين الحروب ، وكان كثير من القضاة يقودون الجيوش ، مثل أسد بن الفرات قاضى القيروان وفاتح صقلية ويحيى بن أكثم قاضى بغداد ومنذر بن سعيد البلوطى قاضى قرطبة ، ونجد فى تراجم كثير من العلماء أنهم توفوا فى غزوات أو مرابطين فى الثغور .

وكان تقدير العلماء للروح العسكرية واتصالهم بها من أسباب قوة هذه الروح وسريانها فى الأمة قاطبة .

وإذا بدا لنا أن نبحث عن أسباب ضعف هذه الروح بعد تلك القوة تراءت لنا أسباب شتى ، منها التعليم الدينى : اتجه إلى النظر أكثر من اتجاهه إلى العمل ، كان إدراك أصول الدين وأحكامه هو الغاية الأخيرة من تعلمه ، ومنها انحدار الناس فى الشهوات ، والتنافس فى الزينة والملاذ الجسمية من نحو الإسراف فى الملابس والمطاعم وقضاء الوقت فى لهو ونوم ، قال الوزير حسن بن عبده يخاطب المستظهر أحد أمراء الأندلس :

أخوض إلى أعدائكم لجج الوغى ... وأسرى إليهم حيث لا أحد يسرى
وقد نام عنهم كل مستبطن الحشا ... أكول إلى الممسى ينوم إلى الظهر

ومما يصح أن يذكر فى أسباب ضعف الروح العسكرية بعد تلك القوة ما عرض لبعض الناس من الخطأ فى فهم التوكل والزهد ، أما التوكل فجروا فيه على معنى ترك تعاطى الأسباب ولابس أذهانهم أن التوكل لهذا المعنى قد يغنى عن الأخذ بوسائل الدفاع ، ونسى هؤلاء أن التوكل الصحيح فى تعاطى الأسباب واستمداد الحول والقوة من الله .

أما الزهد فجروا فيه على معنى إيثار العزلة والانقطاع عن المجتمع ونفض الأيدى من كل مامر ما عدا العبادات من نحو الصلاة والصيام ، فانصرفوا عن كل ما تخيلوه أمرا دنيويا وكان من جملة ما تخيلوه أمرا دنيويا إعداد وسائل الدفاع والنهوض إلى الدفاع وبهذا فقد الزهـد المشروع ركنا من أركانه الذى هو مكافحة الباطل وحماية الحقوق العـامة والخاصة حسب الطاقة .

وكثيرا ما تظهر الروح العسكرية فى آداب أهل العصر ، فمن البعيد أن تسمع من جبان يعيش فى بيئة مقهورة أمثال قول الشاعر :

حملوا ضلوع الأسدبين ضلوعهم ولووا عمائمهم على الأقمار
إن خوفوك لقيت كل كريهة أو أمنوك حللت دار قرار

وإنما تظهر الصور الرائعة من معانى الحرب والحماسة فى عهد أو موطن يعنى فيه القوم بملاقاة الحروب أو التأهب لها .

وأنشأ عبد الرحيم بن نباتة خطبا طافحة بمعانى الدفاع والتشويق إليه ، فأبدع فيها ما شاء ، حتى قالوا : إنه لم يؤلف فى هذا الغرض مثلها ، وإنما اتجه ابن نباتة هذا الاتجاه وبرع هذه البراعة ، لأنه يعيش بحلب فى عهد سيف الدولة ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات ، وذلك العهد أملى على المتنبي كثيرا من المعانى المتعلقة بالحرب والشجاعة ، وبمثل ذلك ارتقى شعره وازدهى بكثير من الحكم السامية : كما قال :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

وقال :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

تتبعت بيئات الخلاعة والانحدار فى اللذات الشعر الذى يبعد النفوس عن الرجولة ، ويذهب به الى الانحلال حتى لا تكاد تتماسك ، ولكن بيئات الشجاعة والحروب هى التى تصدر من الشعر ما كان بجزل المعنى آخذا بالنفوس الى الشهامة والطموح الى العزة ، تجد هذه الروح حتى فى الشعر الذى يخوض فيه قائله نحوا من الغزل كما قال أبو العطاء السندى .

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر

وصفوة هذا الحديث أننا فى نهضة اجتماعية ، والنهضات الاجتماعية لا تقوم إلا على نفوس قوية ، ولا قوة إلا بالشجاعة واقتحام الشدائد وعدم المبالاة بالأخطار ، وذلك ما ندعو الى أن يكون الروح المائلة لصدور شبابنا وكهولنا وشيوخنا وقد عرفتم كيف كانت هذه الروح عنوان الشرف ، أو مرقاة السلامة والعزة .

محمد الخضر حسين
مدرس بكلية أصول الدين وعضو مجمع فؤاد الأول